
جزيرة روبن
بداية الأمل

-٧١-

كان التحسن في المعتقل لا يأخذ شكلا اضطراديا بل كان يتوقف وينتكس. ولكن الأحوال تحسنت بالفعل فقد كسبنا عدة معارك صغيرة أدت إلى تغيير الجو في الجزيرة. وبعد رحيل قان رينسبرج أصبحت حياتنا محتملة.

وكنا قد أعطينا سراويل طويلة في خلال السنوات الأولى. في ١٩٦٩ تسلم كلُّ الملابس الخاصة به وسمح لنا أن نغسلها بأنفسنا وسمح لنا بالخروج للقاء أثناء نهاية الأسبوع، كما سمح للمساجين الأفارقة بالخبز أحيانا مع وجبة الإفطار. وصرفت لنا ألعاب مختلفة وأوراق لعب ولم يعد أحد يقاطع أحاديثنا في الحجر ونجحنا في تحييد السجنائين السيئيين وصادقنا المعتدلين كما أصبحنا قادرين على عقد الاجتماعات.

كما كانت مناسبة الكريسماس هي اليوم الوحيد الذي تبدى فيه السلطات الإرادة الحسنة نحو الرجال فلم تكن نذهب للمحاجر وكان يسمح لنا بشراء كميات قليلة من الطوى ويصرف لنا قرح إضافي من

القهوة مع العشاء وكان يسمح لنا في أيام الكريسماس بإقامة حفلات غنائية كنا نقدم فيها مسرحيات ونغنى فيها التراتيل الدينية والأغاني القرائية والشعبية التي كنا نضمنها بعض أغاني الاحتجاج الأمر الذي كان تتجاهله السلطات أو ربما أنهم كانوا لا يفهمون الكلمات كما كنا نقيم مسابقات في الشطرنج والطاولة وألعاب الورق.

-٧٢-

كان بعض السجناء يبدأون معنا الأحاديث. ولم أكن أنا أخذ المبادرة ولكن إن حادثوني أحببتهم. وكانوا يسألونني عما أريد وقد أوتيت ما يكفيني فكنت أبدأ في شرح سياسة المؤتمر لهم. وفي عام ١٩٦٩ وصل سجان شاب بدا وكأنه مهتم بأن يتعرف علىّ وكنت قد سمعت شائعة مؤداها أن أشخاصا في الخارج كانوا يرتبون أمر هروبي وأنهم سوف يسربون أحد الحراس إلى الجزيرة لمساعدتي. وأسر إلى ذلك الحارس أنه الشخص المعنى.

وبدأ يخبرني بالخطأ، وكانت تتلخص في أنه سوف يقوم بتخدير الحراس المناوبين عند الفنارة؛ لكي يرسو قارب عند الشاطئ وأنه

سيمدنى بمفتاح أستعمله للخروج من المبنى ولقاء القارب وبعد ذلك أرتدى زى الغطس وأنا فى القارب وأسبح حتى ميناء كيب تاون حيث يصحبني أشخاص إلى مطار محلى وأهرب خارج البلاد.

وتشاورت مع وولتر وقررنا أن ذلك الشخص غير أهل للثقة ولم أوضح له أننى لن أقوم بالعملية لكنى لم أفعل أى شئ لإنجاز الخطة ولا بد أنه فهم ما اعتقدته لأنه سريعا ما انتقل من الجزيرة وقد تبين لى فيما بعد أنه عضو فى مخابرات جنوب إفريقيا وكانت الخطة أن أنجح فى الهرب من الجزيرة لكى يتم قتلى بواسطة رجال الأمن وأنا أحاول الهرب من المطار.

وفى نهاية عام ١٩٧٠ قررت السلطات استبدال الجو المتراخى فى الجزيرة وعين الكولونيل بيت بادنهورست مأمورا للجزيرة وكانت له سمعة ضابط وحشى سلطوى فى جميع خدمات السجون. وكان كلما تم تعيين مأمور جديد أطلب مقابله لشرح موقفنا وأيضاً لتقييم شخصه ولما تقدمت بطلبى هذه المرة كان الجواب هو الرفض.

وألقى المأمور الجديد عددا من القواعد بشأن الدراسة ووقت الفراغ وكان من الواضح أنه يعتزم إلغاء المزايا التى اكتسبناها على مدى السنوات. وتم نقل السجنائين القدامى من الجزيرة واستبدالهم بأشخاص من انتقائه يصغرون الآخرين سنا ويفوقونهم فظاظة. وكانت وظيفتهم تنحصر فى مضايقتنا وهدم معنوياتنا. وخلال أيام من تعيينه تم تفتيش الزنزانات وصودرت الكتب والصحف وحجبت الوجبات بنون

إنذار وكان يجرى دفع الأشخاص بخشونة فى الطريق إلى المحجر. وكان بادنهورست يجيب بالنفى على كل شئ وإذا طلب أحد رؤية محاميه كانت النتيجة الحبس الانفرادى. وألغيت الزيارات وتدهور الطعام وزادت الرقابة.

وبعد أسبوع من تعيينه وبينما كنا نعمل فى المحجر وصل بسيارته وخرج منها ووقف يرقبنا عن بعد وتوقفنا للنظر إلى مأمورنا الجديد فننادانى ووجه إلى عبارة بذينة لم أتقبلها فتقدمت نحوه. لكن قبل أن أقرب منه ركب سيارته ومضى. ثم أرسل رسالة بالراديو إلى موظفيه حيث حضروا بالشاحنة ونقلونا إلى قسمننا وحينما وصلنا إلى الفناء أمرنا بالوقوف وعندئذ ظهر بادنهورست يتمشى أمامنا وأخذ يوجه إلينا العبارات البذنية ثم قال لنا إنه شعر بالاشمئزاز لما رآه من تكاسلنا فى المحجر وعلى ذلك قرر أن يندى تصنيفاتنا درجة وكان معظمنا قد ارتفع إلى تصنيف جـ أو أعلى وكان لا يسمح بالدراسة للمساجين من تصنيف جـ. وكانت السلطات قد ندمت على السماح لنا بالدراسة وبدا بادنهورست مصمما على إصلاح ذلك الخطأ.

-٧٣-

فى مايو ٧١ أحضر عدد من رجال منظمة سوابو إلى الحبس الانفرادى وكان على رأسهم أنديمبا تويتو مؤسس سوابو. وعلمنا أنهم بدأوا إضرابا عن الطعام فقررنا أن نلحق بهم مما سبب غضب بادنهورست والسلطات الذين رأوا فى ذلك عصيانا غير مقبول.

وفى وقت متأخر من ٢٨ مايو استيقظنا على صوت صيحات وطرقات عنيفة على أبواب الزنانات وأخذ السجناء يأمرونا بالاستيقاظ ثم بخلع ملابسنا والاصطفاف على الحائط وكان الليل قارس البرودة ولمدة ساعة وبينما كنا نقف عارين مرتجفين أخذوا فى تفتيش زناناتنا واحدة واحدة. وبنهاية الساعة أصابت جوفان آلام حادة فى صدره وانهار وأخاف ذلك الحراس وأمرونا بالعودة إلى الزنانات.

وكان التفتيش عذرا ليمارس به رئيس السجناء نزعاته السادية. وفى اليوم التالى اكتشفنا أن السجناء قد قاموا بضرب بعض مسجونى القسم العام. ويعد ذلك تهجما على توفيقو الذى قام بدوره بالدفاع عن نفسه وأوقع السجناء الذى هاجمه وتمت معاقبته بقسوة لذلك.

وقررنا ألا ندع الأمور تسوء كلية تحت إدارة بادنهورست وقمنا بتهدئة رسائل إلى رجالنا فى الخارج للقيام باضطرابات لطرده وفى نفس الوقت قررنا تكوين لجنة لمقابلة بادنهورست واستغرقت المناقشات شهورا حتى اتخذ قرار التكوين وكنت أنا وولتر نمثل المؤتمر وكان لكل من التنظيمات الأخرى ممثلون وأثناء المقابلة هددهنا بالتوقف عن العمل والتباطؤ والإضراب إن لم يعدل أساليبه ويرد إلينا الامتيازات التى سحبها منا وقال إنه سيدرس الموضوع اعتبرنا ذلك انتصارا.

وبعد أسابيع قليلة عرفنا أن زيارة هامة قد اقترب موعدنا إذ سمح لنا أن نحتمى من الأمطار حينما هطلت على الحجر.

وفى اليوم التالى علمنا أن ثلاثة قضاة سيقدمون إلى الجزيرة واخترت

متحدثًا عن الباقيين.

وفى تلك الأثناء علمت أن سجيننا من القسم العام قد تم ضربه بعنف من قبل الحارس وكان القضاة الثلاثة من قسم الكيب تاون من المحكمة العليا وكان يرافقهم مدير السجون وبادنهورست وقابلتهم فى المكان الذى نعمل فيه.

وتكلمت فى حضرتهم عن الهجمات التى حدثت فى القسم العام وعن وقائع الضرب الأثمة ومحاولة تغطية الجريمة وحاول بادنهورست تكذيبى وتهديدى ولكن القضاة اعتقدوا فى صحة ما أقوله. ثم عدت شكوانا من نظام التغذية والعمل والدراسة. وعقب الزيارة لاحظنا أن يدى بادنهورست كبلت وعقب ثلاثة أشهر تم نقله.

وقبل أيام من مغادرة بادنهورست كان مدير السجون فى زيارة للجزيرة واستدعانى إلى المكتب الرئيسى ليعرف شكوانا وعددت مطالبنا وبعد انتهائى من كلمتى رد بادنهورست مباشرة قائلاً إنه سيغادر الجزيرة وأضاف أنه يرجو لنا حظاً موفقاً. وأصابتنى الدهشة. فقد قال تلك الكلمات كإنسان وأظهر جانباً من نفسه لم نره من قبل فشكرته.

-٧٤-

وأعلن أن الكولونيل ويليمز سيخلف بادنهورست وطلبت مقابلته ووجدت أنه وإن لم يكن تقديمياً فقد كان مجاملاً ومعقولاً.

ورحل السجناء الذين كان بادنهورست قد أحضرهم معه واستعدنا تصرفاتنا المعتادة في الحجر ورغم أن ويليمز كان معقولا فقد صُعِق عندما رأى أننا نقضى وقتنا في الحديث أكثر منه في العمل. فاستدعاني إلى مكتبه وطلب مني مساعدته في فرض النظام فأخبرته أن لطلبه شرعيته ولكن قبل أن أستجيب له فعلى أن أجمع بكل الرجال وكان مثل ذلك الاجتماع محظورا فطلب مني بعض الوقت لدراسة طلبى وبعد أيام سمح لى بالاجتماع. والتقىنا جميعا بعد الظهيرة في الفناء نون حراس وأخبرتهم بما قاله ويليمز واتفقنا أن نظهر على الأقل وكأننا نعمل لكن بالسرعة التي تناسبنا ولم نسمع شكوى مرة أخرى.

وفي الفترة الأولى من عمل ويليمز ما بين ١٩٧١-١٩٧٢ حضرت أعداد كبيرة من أسرى MK وكانوا قد شهدوا المعركة وكانت لديهم معلومات عن حالة الحركة في المنفى. وكنت متشوقا أن سمع عن أوليفر وعن معسكرات التدريب وعن نجاح وفشل MK.

وكان هؤلاء الرجال نضاليين إلى أقصى درجة ولم يتقبلوا حياة السجن بسهولة وكان من قيادات هؤلاء الرجال جيمى إبريل وهو ضابط MK تلقى تدريبه تحت قيادة جو سلوفو وحارب العدو في روديسيا.

وكانت MK تواصل تسريب رجالها إلى البلاد بوتائق مزورة وكان جيمى أحد هؤلاء، وقد ألقى القبض عليه.

وروى جيمى لنا الكثير من أنباء الحرب وافتحيت به جانبا وسألته عن مشاكل MK وبما أنتى مؤسسها وأول قائد عام لها فكان جيمى أكثر صراحة معى وروى لى قصصا عن عدم رضا فى المعسكرات وعن سوء المعاملة من جانب الضباط وطلبت منه ألا يحدث أحدا فى الموضوع وتمكنت من تهريب خطاب إلى أوليفر طالبا منه أن يجرى الإصلاحات فى المعسكرات.

وكانت نضالية هؤلاء الرجال شديدة وعدم تقبلهم لقيود وحياة السجن تسبب لنا المتاعب.

-٧٥-

وذات صباح وبدلا من أن نسير إلى المحجر أمرنا أن نصعد مرة أخرى إلى الشاحنة وسارت بنا خمس عشرة دقيقة ورأينا المحيط أمامنا والشواطئ الصخرية وعلى بعد كانت هناك أبراج كيب تاون الزجاجية وقال لنا الضابط إن علينا أن نجمع طحالب بحرية وكانت طويلة ولزجة وكان بعضها يصل طوله إلى ثمانية أقدام ويزن ثلاثين رطلا. وبعد جمع الأعشاب انتظمتنا فى صفوف ثم حملناها فى الشاحنة بعد جفافها وقيل لنا إنه سيتم تصديرها إلى اليابان لتستعمل كأسمدة وفى ذلك اليوم لم يعد العمل متعبا ولكننا فى الأسابيع والأشهر التى تلت وجدناه مجهدا ولكن ذلك كان محتملا لما كان يوفره جمال المنظر من متعة.

وفى أوساط المقاومة كانت تعرف جزيرة روبن بالجامعة ولم يكن ذلك فقط لأننا كنا نتعلم من الكتب أو لأن المسجونين درسوا هناك الإنجليزية والأفريكانية والفن والجغرافيا والرياضيات، أو لأن أشخاصا مثل بيلي نير وأحمد كاثرادا ومايك وينجاكى وإيدى دانيالز حصلوا على عدة درجات جامعية، ولكنها كانت تسمى الجامعة أيضا لأننا كنا نتعلم من أحدنا الآخر فقد كنا نحن هيئة تدريس أنفسنا ومنهجنا الدراسي وكنا نميز بين الدراسات الأكاديمية الرسمية وبين الدراسات السياسية غير الرسمية.

فحينما كان يصل الشباب إلى الجزيرة كنا نعلم أنهم لا يعرفون سوى القليل عن تاريخ المؤتمر وكان وولتر أعظم مؤرخ للمؤتمر يبدأ فى إخبارهم عن نشأة المنظمة الأولى، وتدرجيا تحول ذلك التاريخ غير الرسمي إلى منهج دراسى تم وضعه بواسطة القيادة العليا وكان يعرف بمنهج أو كان يستغرق عامين من المحاضرات، وكان المنهج يتضمن مقررا يقوم كاثرادا بتدريسه يسمى تاريخ النضال الهندى وآخر يسمى تاريخ نضال الملونين بينما قام ماك بتدريس تاريخ الماركسية.

وشمل المقرر الذى درسه وولتر تاريخ المؤتمر منذ عام ١٩١٢ إلى الوقت الحالى وكان بالنسبة لكثير من الشباب التعليم السياسى الوحيد الذى تلقوه.

وبدأنا نوعا من الدراسة بالمراسلة مع مسجونى القسم العام الذين علموا عن البرنامج التعليمى ورجبوا فى الالتحاق به وكان القادة يسربون إليهم المحاضرات. وكان ذلك مفيدا لنا ولهم فهؤلاء الرجال لم يكونوا قد تلقوا سوى القليل من التعليم ولكنهم كانوا على دراية واسعة بمشاق الحياة وكانت اهتماماتهم عملية أكثر منها فلسفية وكانت أسئلتهم تجبرنا على التفكير الجدى فى أرائنا.

وقمت أنا بتدريس مقرر فى الاقتصاد السياسى حاولت فيه تتبع تطور الإنسان الاقتصادى، منذ المجتمعات الجماعية وحتى الإقطاع ثم الرأسمالية والاشتراكية، وكنت أحاول أن أجيب عن الأسئلة بدلا من أن ألقى المحاضرات، وكنت متحازا للاشتركية التى كنت أجد فيها أكثر مراحل الحياة الاقتصادية التى طورها الإنسان تقدما.

كما استمر عملى القانونى.. فكنت أقضى الساعات العديدة كل أسبوع أعد استئنافات قانونية للسجناء من جميع الطوائف السياسية. وكان كثير من الرجال فى القسم العام قد حكم عليهم بالسجن لأنه لم تكن لديهم الفرصة للاستشارة القانونية وسعى إلى كثير منهم لعمل استئنافات. وكان فى ذلك إبقاء على حيوية مهارتى القانونية من جهة ومن جهة أخرى فقد تم إلغاء بعض الأحكام أو تقليها فى عدد قليل من القضايا وكانت تلك انتصارات مرضية.

-٧٧-

لم يتوقف اضطهاد السلطات لزوجتى، ففى عام ١٩٧٢ ركل رجال

الشرطة باب المنزل وحطموه وقذفوا قوالب الطوب من النافذة وأطلقوا النيران على البوابة، وفي عام ١٩٧٤ اتُهمت وبنى بخرق أوامر الحظر التي كانت منعت بمقتضاها من استقبال أى زائرين سوى أطفالها وطبيبها. وكانت وقتها تعمل فى مكتب محام وأحضر صديق البنيتين إليها أثناء ساعة الغداء فاتهمت بخرق الحظر وحكم عليها بالسجن ستة أشهر فى سجن ولاية أورانج وكتبت إلى وبنى قائلة إن تجربتها فى السجن عملت على تدعيم التزامها بالمعركة وكانت السلطات تسمح لزیندزی وزینی بزيارتها كل يوم أحد.

وكانت قوانين السجن فى جزيرة روبن لا تسمح للأطفال ما بين عامين وستة عشر عاما بالزيارة. وفى عام ١٩٧٥ كانت زیندزی قد أتمت الخامسة عشرة وقامت والدتها بتغيير وثائق ميلادها لتثبت أنها أتمت السادسة عشرة وقدمت لها على تصريح بالزيارة تمت الموافقة عليه.

ولم أكن قد رأيت زیندزی منذ أن كانت فى الثالثة وكانت هى تعرفنى من الصور أكثر من الذاكرة، وفى يوم زيارتها اعتنيت بمظهرى أكثر من المعتاد. وعندما رأيتها سعدت أنها قد أصبحت امرأة جميلة تشبه والدتها إلى حد كبير. وبدت زیندزی مترددة فى البداية فلم يكن من السهل عليها أن ترى والدها الذى لم تعرفه أبدا والذى بدا وأنه لا ينتمى إليها ولكن إلى الناس عامة. ولا بد أنها كانت فى أعماقها تكن الاستياء والغضب نحو والدها الذى ظل غائبا طوال مدة طفولتها ومراهقتها. وتبينت فورا أنها شابة نارية ثورية مثل والدتها.

وأثناء تلك الزيارة علمت من ويني بمأساة وفاة فيشر من مرض السرطان بعد الإفراج عنه من السجن بقليل، وقد تأثرت بعمق لوفاته. فرغم أن الحكومة لم تترك بصماتها على جثته فإن قسوة معاملتها التي لا هوادة فيها هي التي تسببت في مرضه الأخير الذي أدى إلى وفاته المبكرة. وحتى بعد وفاته استمرت الحكومة في مطاردته وصادرت رماد جثته بعد حرقها.

وكان برام مثاليا فبعد محاكمة ريثونيا قرر أنه يستطيع خدمة المعركة على الوجه الأفضل بالعمل السري بالمعيشة كخارج على القانون، فقد كان يؤرقه أن الرجال الذين تولى الدفاع عنهم كانوا يرسلون إلى المعتقلات بينما كان يعيش هو حرا. وأثناء المحاكمة نصحته ألا يسلك ذلك الطريق مؤكدا أنه يخدم المعركة أفضل في قاعة المحكمة حيث يستطيع الناس رؤية أفريكاني وابن رئيس قضاة يقاتل من أجل حقوق المغبونين ولكنه لم يكن يستطيع أن يرى الآخرين يعانون بينما يظل هو حرا. وكالقائد الذي يقاتل جنبا إلى جنب مع جنوده لم يرد أن يطلب من الآخرين أن يقدموا تضحية يتورع هو عنها. والتحق برام بالعمل السري حينما أفرج عنه بكفالة. وقبض عليه عام ١٩٦٥ وحكم عليه بالسجن مدى الحياة للتأمر على ارتكاب الأعمال التخريبية. وحاولت الكتابة إليه ولكن القوانين كانت تمنع ذلك. وعند إصابته بالسرطان قامت الصحافة بحملة للإفراج عنه على أسس إنسانية واستجابت الحكومة وبعد الإفراج عنه وبينما كان يقيم مع أخيه حيث حددت إقامته توفى.

ويطرق عديدة فإن برام فيشر حفيد رئيس وزراء مستعمرة نهر أورانج قدم أكبر التضحيات على الإطلاق. فمهما كانت معاناتي في بحثي عن الحرية فقد كنت أستمد القوة من كوني مناضلا من أجل شعبي. أما برام فكان رجلا حرا ناضل ضد شعبه من أجل أن يضمن الحرية للآخرين.

ويعد شهر من الزيارة تثقيت رسالة من ويني تقول إن طلبها الأخير للزيارة قد رفض بحجة أنني لا أريد رؤيتها وحددت فورا موعدا مع الضابط برينس الذي كان مأمورا للسجن والذي لم يكن مهذبا. فحينما شرحت له الأمر مؤكدا أنه يجب السماح لزوجتي بزيارتي علق قائلا إن زوجتي تبحث عن الدعاية ولما أظهرت استيائي من تعليقه وصف زوجتي بأوصاف بذئية ولم أحتمل ونهضت من مقعدي وتحركت نحوه فأخذ يتقهقر ولكنني تحكمت في نفسي وبدلا من التهجم عليه بقبضتي هاجمته بالكلمات. وختمت قائلا إنه إنسان وضع بدون شرف وإنه إن تكرر منه ذلك قلن أمنع نفسي كما فعلت ذلك اليوم. واندفعت خارج المكتب وشعرت أنه قد تسبب في أن أفقد السيطرة على نفسي وشعرت بالهزيمة.

وفي اليوم التالي اصطحبني سجانان إلى مكتب المأمور وحينما وصلت أحاط بي حوالى ستة سجانين مسلحين. وكان هناك برينس وضابط الاتهام في المعتقل وقال لى المدعى إنه يتهمنى بإهانة وتهديد مأمور السجن وناولنى أمر الاستدعاء وسألنى إن كان لدى ما أقوله فأجبت بإمكانه التحدث مع محامىي.

وقررت أن أقوم بإعداد قضية مضادة أتهم فيها كل الأفراد بدءاً بالمأمور وحتى وزير العدل بسوء التصرف وأقاضى نظام السجون على أساس أنه مؤسسة عنصرية تسعى إلى استمرار سيادة البيض وأجعل من القضية قضية عامة.

وطلبت من جورج بيزرس أن يمثلنى وقلت للسلطات إننى سأقوم بإعطائه تعليمات مكتوبة لأننى أعتقد بوجود أجهزة تصنت فى غرفة الاستشارة فرفض طلبى لأن السلطات كانت تخشى أن يسرب جورج بيانى المكتوب إلى الصحافة وكانت تلك هى بالفعل استراتيجيتنا. وكانوا أيضاً يخشون أن أستغل جورج كقناة توصيل إلى أوليفر فى لوساكا وقد كنت قد استخدمت جورج لغرض كهذا من قبل. ولكن الوثيقة الحالية لم يكن بها شئ من هذا القبيل. وحدد موعد لعقد محكمة التأديب بالجزيرة وقبل الجلسة بيوم واحد أبلغت أن محامى سيمصل فى اليوم التالى وأنه بإمكانى إعطاؤه البيان مكتوباً وتشاورت مع جورج قبل انعقاد الجلسة، لكن ما إن بدأت الجلسة حتى أعلن المدعى سحب القضية ضدى. وبينما نظرت وجورج باستغراب وكنت أستعد لوضع أوراقى فى الحقيبة وصل ضابط اتهام بأمر جديد وأشار إلى بيانى المكتوب وأمر أن أعطيه إياه. ولما طلبت من المدعى أن يخبره أن تلك وثائق تحمىها حقوق المحامى وأن من حقى ألا أسلمها رد قائلاً إن القضية الأولى قد انتهت وأن المحكمة غير منعقدة وأن ضابط الاتهام هو الشخص الوحيد فى الغرفة الذى لديه أية سلطة وكان من الواضح أن السلطات سحبت القضية للحصول على الوثيقة

التي لم يكن بها شيءٌ ليسوا على علم به.

ورغم ما كان يبدو من استحالة الهرب فلم أستبعد الفكرة طيلة وجودي في الجزيرة وكان ماك ماهاراب وإيدي دانيالز وكلاهما شجاع وواسع الحيلة دائمى التفكير ومناقشة الخطط والاحتمالات.

وكان أحد الرفاق قد تمكن من صنع مفتاح يفتح معظم غرف قسمنا حيث استعملناه لدخول بعض المخازن ولكننا لم نستعمله للخروج من القسم. فقد كان البحر هو الخندق المائى الذى لا يمكن اجتيازه.

وفى عام ١٩٧٤ عبر ماك البحر إلى كيب تاون لزيارة طبيب الأسنان وكان متعاطفا حيث إن أحد أقربائه كان مسجوناً سياسياً ولذلك فقد رفض أن يعالج ماك حتى يفك قيده. وقد لاحظ ماك أن غرفة الانتظار بها نافذة قريبة من الأرض تطل على شارع جانبي وخططت أنا وماك وويلتن مكواي وسجين رابع أن نذهب إلى طبيب الأسنان وكنا على استعداد للقيام بالمحاولة ولكن حينما اتصل ماك بالشخص الرابع رفض. وكنا نشك فى ولائه. ولما ذهبنا إلى طبيب الأسنان أخليت العيادة من المرضى الآخرين. وطلبنا فك قيودنا وقام الحراس بذلك. ولكن حينما نظرنا من النافذة لاحظنا أن الشارع وهو شارع شديد الازدحام فى العادة قد أخلى من المارة وشككنا فى أمر كمين ولم ننفذ الخطة.

كان عيد ميلادى الخمسين قد مر يوم ١٨ يونيو ١٩٦٨ دون أن ألاحظه

وفي عام ١٩٧٥ حينما بلغت السابعة والخمسين تقدم وولتر وكاثارادا بخطة طويلة الأجل لاحتفال يجعل عيد ميلادى الستين مناسبة تذكرو.

وكانت إحدى القضايا التى تشغلنى هى إبقاء فكرة المعركة حية بين الشعب وكانت الحكومة قد أخذت معظم الصحف الراديكالية خلال العقد الماضى وكان هناك حظر على نشر أى كلمات أو صور للسجناء.

وذات يوم كنت أتحدث مع كاثارادا و وولتر فى القناء حينما اقترح كاثارادا أن أكتب مذكراتى ورأى أن أنسب ميعاد لنشر مثل ذلك الكتاب هو بلوغى الستين وقال وولتر إن مثل تلك القضية إذا رويت بصدق وعدل فستعمل على تذكير الناس بما قاتلنا ومازلنا نقاتل من أجله وأنها ستكون بمثابة إلهام للمقاتلين الشباب وراقت لى الفكرة ووافقت أن أبدأ وقررت أن أكتب معظم الليل وأناام معظم النهار.

وكنت كل يوم أعطى ما أكتب لكاثارادا الذى كان يراجعه ثم يقرؤه على وولتر ويكتب ملاحظاته فى الهوامش ولم يتردد الاثنان فى نقدى وكنت أهتم بنقدهما وأقوم بعمل التغييرات وبعد ذلك كان لالو تشيبيا يأخذ المسودة ويحول ما كتبته إلى نسخة ميكروسكوبية مختزلة بنقل صفحات عشر من الفولسكاب إلى وريقة صغيرة ويقوم ماك بتهريبها إلى الخارج.

وبدأ الشك يساور السجنانيين فسألوا ماك عما أفعله طوال الليل فهز كتفيه قائلاً إن ليس لديه أدنى فكرة وأخذت أكتب بسرعة عظيمة حيث انتهيت فى أربعة أشهر وغطيت الفترة من مولدى وحتى محاكمة

ريفونيا وختمت ببعض التعليقات على جزيرة روبن.

وخبأ ماك النسخة المصغرة فى أغلفة دفاتره التى يستعملها فى الدراسة وقام بتهديبها خارج السجن حين الإفراج عنه عام ١٩٧٦. وكانت الترتيبات قد تمت على أساس أن يخبرنا ماك حينما يتم تهريب النسخة خارج البلاد وحينئذ نقوم بإعداد الأصل. وفى نفس الوقت كان علينا أن نتخلص من الخمسمائة صفحة الأصلية بدفنها فى الحديقة فى غفلة من الحراس فى ثلاث بقع مختلفة بدل حفر حفرة واحدة كبيرة وقسمنا المخطوط إلى ثلاثة أجزاء غلفناها بالبلاستيك ووضعنا كلا منها فى علبة كاكاو وطلبنا من جيف ماسيمولا أن يصنع أدوات الحفر. وذات صباح خرجت أنا وكاترادا وولتر وإيدى دانيالز وكانما للتمشية والحديث السياسى فى الحديقة وتمكنا من حفر الحفر ودفنت أنا الجزء الأكبر من المخطوط فى حفرة عميقة فيها إنبوبة معدنية وثبتت المخطوط تحت الأنبوبة وانتهينا من العملية فى الوقت المحدد لذهابنا إلى الحجر وشعرت بالراحة لوجود المخطط فى مكان أمين.

وبعد أسابيع قليلة وبعد ميعاد استيقاظنا بقليل سمعت صوت دقات فنوس ومجارف. وبعد خروجنا من الزنزانات لتغتسل تمكنت من استرقاق النظر إلى الخارج وهناك، فى النهاية الجنوبية للفناء، كان فريق عمل من سجناء القسم العام يقوم بحفر فى المنطقة التى دفنا فيها المخطوط. فقد قررت السلطات بناء جدار أمام قسم الحبس الانفرادى لأنهم اكتشفوا أن السجناء هناك كان بوسعهم الاتصال بنا فى الفناء. وكان فريق العمل يحفر حفرة لوضع الأساس.

وأخبرت كاثرادا و وولتر بالأمر ونحن نغتسل واعتقد كاثرادا أن الجزء الرئيسي من المخطوط الذى كان قد تم دفنه تحت أحد الأنايبب لآخوف عليه أما الجزمان الأخران فكانا معرضين للاكتشاف، وحينما أحضر الإفطار إلى الفناء أمر السجنائون المشرفون على فريق البناء رجالهم بمفادرة الفناء لكى لا يحدث اتصال بينهم وبيننا، وتشاورت مع وولتر وكاثرادا، ثم مشينا حتى وصلنا إلى نهاية الفناء الجنوبي ووجدنا أن بداية الحفر كانت قريبة جدا من مواقع العلبتين الصغريين ولحق بنا إيدى دانيالز وبدأنا فى الحفر وأنقذنا المخطوطين ولما كنا متأكدين أنهم لن ينزعوا الأنبوبة من أجل بناء حائط تركنا المخطوط الثالث مكانه.

وعندما عدت من المحجر ذلك اليوم وبدلا من الذهاب للاغتسال تمشيت إلى نهاية الفناء محاولا التظاهر باللامبالاة ولكن أزعجنى ما رأيت فلقد لاحظت أن فريق العمل قد انتزع الماسورة ولا بد أن رد فعلى جذب الانتباه وكان هناك عدد من السجنائين يرقبوننى وتآكفوا أننى كنت على علم بمكان المخطوط. وعدت إلى المر لأغتسل وأخبرت وولتر وكاثرادا وكان إيدى قد تخلص من المخطوطين الآخرين.

وفى الصباح الباكر لليوم التالى استدعيت إلى المكتب لمقابلة المأمور الذى كان يقف إلى جانبه أحد مسئولى السجنون الكبار وكان قد وصل توه من بريتوريا. وأخبرنى المأمور أنهم قد وجدوا المخطوط الخاص بى. وبقيت صامتا وحينما سألنى إن كان ذلك خطى لم أجب. ولما أكد أنهم يعلمون أنه لى سألته أن يأتى بالدليل.

وكان ردهم أن ما بحوزتهم هو الدليل وأضافوا أن الملاحظات الهامشية هي بخط كاثرادا وولتر. ورغم أنهم لم يوقعوا علينا عقوبات ذلك اليوم فقد أعلمنا بعد أيام قليلة أنه قد تم حرماننا من ميزات الدراسة واستمر ذلك الحرمان أربع سنوات.

وبعد أن تم الإفراج عن ماك في ديسمبر أرسل الدفاتر إلى إنجلترا ثم قضى سنة محددة إقامته في منزله في جنوب إفريقيا وعقب ذلك تسلسل من البلاد وذهب إلى لوساكا لمقابلة أوليفر ثم إلى لندن حيث مكث ستة أشهر وهناك وبمساعدة كاتب آلة أعاد كتابة المخطوط وعاد إلى لوساكا وأعطى نسخة لأوليفر. ولا أعرف ماذا فعل بها أوليفر بعد ذلك ورغم أنها لم تنشر وأنا في السجن فإن محتوياتها هي العمود الفقري لهذه المذكرات.

-٧٩-

وفي ١٩٧٦ تلقيت زيارة غير عادية من جيمي كروجر وزير السجون وعضو بارز في الوزارة ولم يكن كروجر فقط ذا تأثير بشأن سياسة السجون بل أيضا كان ينتقد سياسة الحكومة إزاء معركة التحرير.

وقد حدثت سبب مجيئه فقد كانت الحكومة تقوم بمجهودات ضخمة لإنجاح سياستها للتنمية المنفصلة وللمناطق شبه المستقلة وكانت ترانسكي بقيادة ابن أختي وولي نعمتي في وقت سابق ماتانزوما النموذج الذي تعرضه الحكومة في هذا الصدد. وتذكرت ما كان المأمور قد قاله لي مؤخرا وكأنما يتفاكه من أن على أن أتقاعد في

ترانسكي وأخذ فترة راحة طويلة. وكان ذلك بالفعل ما اقترحه كروجر. وقد رأيت في المقابلة فرصة لعرض شكاوانا وكان رده أننا جميعا شيوعيون نستعمل العنف. وكان من الواضح أنه لا يعرف شيئا عن المؤتمر. وحينما قلت له إننا أقدم من الحزب القومي، صعقته الدهشة، وكان أيضا لا يعرف شيئا عن ميثاق الحرية.

وكان من الواضح أن كروجر جاء مسلحا بعرض محدد وهو أنه في حالة اعترافى بحكومة الحكم الذاتى فى ترانسكى فإن العقوبة ستخفف عنى بدرجة كبيرة. وأخبرته أنني أرفض سياسة البانتوستانات رفضا تاما وأنتى لن أفعل شيئا لدعمها، وذكرت أيضا أنني من جوهانسبرج وأنتى لو عدت فستكون عودتى لجوهانسبرج. ولم تفلح محاولاته لإقناعى وعاد مرة أخرى بعد شهر لنفس الغرض وقوبل بالرفض فقد كان عرضا لا يقبله سوى مرتد.

- ٨٠ -

وفى يونيو ١٩٧٦ بدأنا نسمع تقارير غير واضحة عن انتفاضة كبيرة فى البلاد. وسمعنا أن شباب سويتو تغلبوا على العسكر وأن الجنود ألقوا بأسلحتهم وهربوا. ولم نعلم بواقع ما حدث إلا مع وصول المسجونين الشباب ممن اشتركوا فى انتفاضة ١٦ يونيو ١٩٧٦.

ففى ١٦ يونيو تجمع خمسة عشر ألفا من تلاميذ المدارس فى سويتو للاحتجاج على قرار الحكومة القاضى بأن تدرس نصف المقررات فى المدارس الثانوية الإفريقية باللغة الأفريكانية ولم يكن الطلبة يريدون أن

يتعلموا تلك اللغة ولم يكن المدرسون يريدون أن يدرسوا لغة الغاصب. ولم تجد الالتماسات التي أرسلها المدرسون والآباء، وجابهت كتيبة شرطة ذلك الجيش من الطلبة وفتحوا نيرانهم عليهم بدون مقدمات مما نتج عنه مقتل هيكتور بيترسون البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما وآخرين كثيرين. ورد الأطفال بالحجارة والعصى وترتب على ذلك حالة من الفوضى الجماهيرية مما أدى إلى جرح مئات من الأطفال بينما قتل رجلان أبيضان بالحجارة.

وترددت أصداء الأحداث في أرجاء المدن والمناطق الإفريقية وبتجت أعمال شغب وعنف في جميع أنحاء البلاد ونظمت جنازات جماهيرية لضحايا عنف الدولة تحولت إلى مظاهرات، وفجأة اشتعلت أرواح شباب جنوب إفريقيا بالاحتجاج والثورة. فقاطع الطلبة المدارس في جميع أنحاء البلاد وشارك منظمو المؤتمر الطلبة بدعم الاحتجاج وهكذا انقلب النظام التعليمي على الذين ابتدعوه لأن ذلك الشباب الغاضب الجري كان ثمرته.

وفي سبتمبر امتلأ قسم الحبس الانفرادي بشباب تم القبض عليهم عقب الأحداث وعلما منهم بما حدث وارتفعت معنوياتنا فقد انفجرت روح الاحتجاج الجماهيرى التى بدأت خامدة فى الستينيات. كان كثير من هؤلاء الشباب قد ترك البلاد ليلحقوا بحركتنا العسكرية ثم تسلبوا راجعين وكان قد تم تدريب الآلاف منهم فى تنزانيا وأنجولا وموزمبيق، وكسجناء، كان هؤلاء الشباب مختلفين عن أى شئ رأيناه. فقد كانوا

شجعانا عدائيين وعدوانيين ولم يكونوا ليطيعوا أى أوامر وكان يميلون إلى المواجهة ولم تدر السلطات ماذا تفعله معهم فقد قلبوا الحياة فى الجزيرة رأسا على عقب.

وقد رأينا فيهم روح العصر الثورية الفاضبة وكنت قد عرفت من وبنى ميولهم النضالية الإفريقية. وقد روع المساجين الجدد ما أسموه الظروف البربرية فى الجزيرة وبدوا متشككين فينا وتجاهلوا دعوتنا للنظام. وكان من الواضح أنهم يرونتنا معتدلين. وبعد سنوات طويلة من وصمى بالثورية والراديكالية لم يكن رأيهم فى كمتعادل مدعاة للسرور- وفضلت أن أسمع ما يقولون.

وحيثما حضر بعض هؤلاء الشباب مثل ستيرنى مودلى من منظمة الطلبة الأفارقة، وساتس كوبر من مؤتمر الشعب الأسود إلى قسمنا دعوتهم إلى إلقاء محاضرات عن تنظيماتهم فقد كنت أود أن أعرف ما أتى بهم إلى المعركة وواقعهم وأفكارهم عن المستقبل.

وقد رفض هؤلاء الشباب الانصياع لتعليمات السجن كخلع القبعات فى حضور الضباط أو الوقوف إذا دخل الضابط الغرفة.

وكانت هذه أول مرة نتعرف على حركة «الوعى الأسود» فبعد حظر المؤتمر وال PAC والحزب الشيوعى ساعدت حركة «الوعى» على ملء الفراغ بين الشباب وكان «الوعى الأسود» فلسفة أكثر منها حركة ونتجت عن فكرة وجوب تحرير السود أنفسهم من عقدة النقص التى كانت نتاج قرون من حكم البيض لكى يمكن للشعب أن يهب بثقة

ويحرر نفسه من الطغيان. وبينما كانت حركة الوعي تؤيد مجتمعا لا عنصريا فإنهم لم يسمحوا للبيض أن يلعبوا دورا لتحقيق ذلك الهدف. وكانت تلك هي الآراء التي كنت أعتنقها حينما كونت منظمة الشباب من ربع قرن مضى. إذأ، فحركة الوعي تمثل نفس الاستجابة لنفس المشكلة التي لم تختف. وبينما شجعتى روحهم النضالية فقد اعتقدت أن فلسفتهم بتركيزها على اللون الأسود كانت فلسفة إقصائية وتمثل وجهة نظر انقالية لم تتضح بعد. ورأيت أن دورى كسياسى أكبر سنا هو أن أساعدهم إلى أن ينتقلوا لما هو أكثر شمولا وكنت أعلم أيضا أن هؤلاء الشباب سيحبطون لأن حركتهم لا تقدم برنامج عمل.

كنت أقوم بالاتصال ببعض هؤلاء الشباب عن طريق رسائل مهربية وتحادثت مع بعض ممن كانوا من إقليم ترانسكى وسألتهم عن موطنى. وكان بعضهم ذا شهرة نضالية وقد كنت سمعت تقارير عن باتريك ليكوتا المشهور بـ«العرب» وكان قائد جمعية طلبة جنوب إفريقيا وأرسلت له رسالة أرحب به فى الجزيرة وكان قد اكتسب شهرته كلاعب كرة، وأيضا لمهارته فى المجادلة. وكان قد اختلف مع بعض زملائه بخصوص الإقصائية العرقية. وبذلك كان قد اقترب من أفكار المؤتمر. وحينما أتى إلى الجزيرة قرر أن يلتحق بالمؤتمر ولكننا لم نشجعه خوفا من خلق توترات فى القسم العام ولكنه غير ولاءه والتحق بالمؤتمر. وذات يوم تعرض لهجوم بمذراة فى الحديقة بواسطة أعضاء من الوعي الأسود وتم علاجه ووجه الاتهام إلى المتهمين. ولكى لا نشئت الشمل أشرنا عليه ألا يقدم شكوى ووافق ورفض تأدية الشهادة

ضدهم وأسقطت الدعوة. وقد كنت أريد أن يرى هؤلاء الشباب المؤتمر مظلة كبرى تظل أناسا من نزعات مختلفة وآراء متباينة. وبعد تلك الحادثة قرر العشرات من هؤلاء الالتحاق بعضوية المؤتمر بمن فيهم بعض الذين هاجموه وقد ارتقى «رعب» إلى الصفوف الأمامية للمؤتمر فى القسم العام وأصبح يقوم بتدريس سياسة المؤتمر للسجناء الآخرين. وأكدت شجاعة ورؤية رجال مثل ليكوتا أنه مازالت لآرائنا فاعليتها وأنها مازالت تمثل الأمل الأفضل لتوحيد معركة التحرير ككل.

-٨١-

ولقلق السلطات من كيفية التعامل مع تلك الأسود الصغيرة فقد تركت لنا الحبل على الغارب. وكنا حينذاك فى السنة الثانية من إضراب التباطؤ فى العمل، فقد كان مطلبنا هو حقنا فى أن يُسمح لنا بعمل شئ مفيد كالدراسة أو تعلم مهنة وأن يلغى العمل اليدوى فأوقفنا الذهاب إلى المحجر وقضينا الوقت نتحدث. وفى آخر عام ١٩٧٧ ألغت السلطات العمل اليدوى وأصبح بإمكاننا قضاء اليوم بقسمنا.

وكانت نهاية العمل اليدوى نوعا من التحرر فتفرغت لكتابة الخطابات والنقاش والقراءة وإعداد مذكرات قانونية كما أننى ركزت على هوايتين لى وهما لعب التنس والعمل بالحديقة. وقد نجحت فى زراعة حديقة بالفناء أصبحت تمد الحراس بالبصل والطماطم كما أرسلت فى طلب كتب عن فن زراعة الحدائق. وكنت أرى فى الحديقة إلى حد

ما مجازا لبعض أوجه حياتي. فعلى القائد رعاية حديقته وغرس الحبوب وزراعتها وجنى المحصول. وكالبستاني فيجب على القائد تحمل مسئولية ما يزرعه والعناية بعمله والتخلص من الأعداء والحفاظ على ما يجب الحفاظ عليه وترك ما لا يمكن إنجازه.

وكتبت خطاباً لويلى عن نبتة طماطم احتضنتها منذ أن كانت صغيرة إلى أن أصبحت زرة قوية وأنتجت ثماراً عميقة الاحمرار. ولكن نظراً لخطأ ما أو للتهاون فى الرعاية بدأت تذبل لم تفلح محاولاتي فى أن أعيدها قوية. وحينما ماتت اقتلعت الجذور من التربة وغسلتها ودفنتها فى ركن الحديقة. رويت تلك القصة بالتفصيل ولا أعرف ماذا استنتجت وبنى من ذلك الخطاب ولكنى حينما كتبتة كانت لدى مشاعر متباينة فلم أكن أريد لعلاقتنا أن تنتهى مثل تلك الزرة ولكنى كنت أشعر أنه لم يكن بمقدورى تدعيم معظم علاقاتى المهمة. وأحياناً يقف الإنسان عاجزاً حيال شئ لا بد وأن يموت.

وكانت نتيجة إيقاف العمل اليدوى زيادة وزننى. وإنى أجد التمرينات الرياضية ليست أساسية فقط لصحة الجسد بل للسلام النفسى. وكنت أقوم بالتدريبات بانتظام فى الجزيرة. وكانت هيئة الصليب الأحمر. وبناء على شكوانا قد أمدتنا بمعدات الرياضة المختلفة ككرة القولى وتنس الطاولة. وبعد إلغاء مميزات الدراسة بدأت فى قراءة الروايات وكانت مكتبة الجزيرة تحوى عدداً هائلاً منها. أما الكتب السياسية فكانت من المحظورات كذلك كانت كل الكتب عن الاشتراكية والشيوعية لدرجة أن عنوان أى كتاب، حتى ولو كان رواية، إذا احتوى لفظ أحمر

أو حمراء أصبح من المنوعات، وكنت منذ البداية أحاول قراءة كتب عن جنوب إفريقيا لكتاب من جنوب إفريقيا فقرأت روايات نادين جورديمر غير المحظورة وتعلمت منها الكثير عن المشاعر الليبرالية البيضاء.

-٨٢-

وفى أعقاب انتفاضة طلبة سويتو علمت أن ويني وصديقي القديم الطبيب ناثو موتلاند التحقا بجمعية الآباء السود. وفى أغسطس وبعد شهرين من ثورة الطلبة احتجزت ويني وسجنت بقلعة جوهانسبرج بدون توجيه تهمة ولمدة خمسة أشهر وبعد الإفراج عنها كانت أكثر تصميمًا والتزامًا بالمعركة. وكادت السلطات مستاءة من شعبية ويني وسط الراديكاليين الشباب وكانوا مصممين على الإقلال من تأثيرها وقد نفذوا ذلك بتبجح ووقاحة ففرضوا عليها النفى الداخلى حيث حضرت شاحنة وعربات شرطة فى ليلة ١٦ مايو ١٩٧٧ وحملوا الأثاث والملابس فى الشاحنة. وصدر القرار بنفى ويني إلى منطقة ليس فيها أى صداقات أو معارف ولا تعرف لغتها.

ومن خطباتها علمت أن الحياة هناك شديدة الصعوبة فلم تكن هناك تدفئة أو مراحيض أو مياه جارية ولم تكن هناك متاجر صغيرة وكانت المتاجر الكبيرة تكن العداء للأقارعة وكان البيض هناك شديدي المحافظة وأصبحت ويني وزيندزى هناك تحت الرقابة الشديد والتهديد من الشرطة.

وفى سبتمبر وبمساعدة محامى وبنى تقدمت بطلب ضد الشرطة هناك طالبا منعهم من مضايقة وبنى وزيندى وحكم القاضى لوينى وزيندى باستقبال زائرين هناك وبما أوتيت وبنى من مرونة تمكنت خلال فترة قصيرة نسبيا من اكتساب الناس هناك بما فى ذلك بعض البيض المتعاطفين وقامت بنشاطات اجتماعية لصالح الأفارقة هناك.

وفى ١٩٧٨ تزوجت ابنتى الثانية من وبنى بأمر تامبموزى نجل ملك سويوزا من سوازيلاند وكانا قد التقيا أثناء الدراسة. ولم أستطع القيام بواجبات الأب فى تلك المناسبة ووكلت مستشارى القانونى جورج بيزوس فى أن ينوب عنى. وعلمت من جورج أن والد العريس قائد محلى مستتير وعضو فى المؤتمر وكان لزواج زبنى من الأسرة المالكة لسوازي ميزة هائلة فقد منحت جواز سفر ديبلوماسيا وكان بإمكانها زيارتى عندما تريد. وحضرت فى الشتاء هى وزوجها ووليدتها. ولنزلة الأمير فقد سمح بلقائنا فى غرفة الاستشارات وكان لقاء رائعا. وكان للزيارة هدف رسمى فقد كان على أن أختار اسما لحفيدتى وأسميتها زازيوى الذى يعنى أمل.

-٨٢-

وفى أثناء العامين التاليين أصابتنى حالة حنين حادة وكانت إبائها ذاكرتى تنقلنى إلى لحظات فرح وحزن غامرين. وأصبحت أحلامى غنية وكنت أقضى ليالى بطولها أعيش الأوقات السعيدة والحزينة للماضى. وأضحى هناك كابوس يعاودنى فقد كنت أرانى وقد أطلق سراحى

ولكن من جوهانسبرج ومررت خلال أسوار المدينة ولكن لم أجد أحدا يستقبلني هناك فقد كان المكان خاويا وكنت أسير تجاه سويتو قاصدا منزلنا وبعد عدة ساعات كنت أجد المنزل ولكن أيضا خاويا كمنزل الأشباح.

-٨٤-

وفى عام ١٩٧٨ وبعد حوالى خمسة عشر عاماً من المطالبة بحق تلقى الأنباء وصلت السلطات إلى تسوية فبدلاً من أن تسمح بالصحف أو بالاستماع إلى الإذاعة قررت أن تبدأ إذاعة داخلية تذيع منها ملخصاً للأنباء وكانت الفقرات التى تذاع تتكون من أنباء طيبة عن الحكومة وسيئة عن أعدائها وافتتحت أول نشرة إخبارية بنياً وفاة سوپرت سوبوكوى وكانت هناك أنباء أخرى عن انتصارات قوات إيان سميث.

وفى تلك السنة علمنا أن بى. دبليو. بوتنا خلف فورستر فى رئاسة الوزراء. وكان كل ما أعرفه هو أن بوتنا كان وزير دفاع شرسا. وقد أمر بالهجوم على أنجولا عام ١٩٧٥. ثم علمنا ما لم تذعه المحطة وهو نجاح حركة التحرير فى أنجولا وموزمبيق وتولى حكومات ثورية هناك.

وأدخلت السلطات أيضا إلى الجزيرة الأفلام السينمائية حيث كان يعرض فيلم كل أسبوع. وكان ضمن الأفلام التى عرضت فيلم كليوباترا وأثار الفيلم مناقشات كثيرة حيث اعترض الكثير على أن تقوم ممثلة أمريكية بنور كليوباترا.

ورأوا فى ذلك الفيلم مثلاً للدعاية الغربية التى تسعى لمحو حقيقة أن

كليوباترا كانت إفريقية وذكرت لهم أنا عن التمثال الرائع الذي رأيته في مصر لكليوباترا والذي صورها ذات بشرة أبنوسية. وتأثرت تأثراً عميقاً بفيلم وثائقي صور إغراق السفينة الملكية البريطانية على أيدي اليابانيين وكان أكثر ما أثار في هو رؤية تشرشل يبكي عقب فقدان السفينة. وقد بقيت الصورة في ذاكرتي مدة طويلة وحدث بعد مشاهدتنا فيلماً عن مجموعة ملائكة جهنم الأمريكية - التي كانت ضد السلطة - بدأنا على الفور في نقاش معناه، وانتقد معظم الرجال أساليب جماعة ملائكة جهنم الخارجة على القانون ولكن أحد أعضاء جمعية الوعي الأسود ويدعى ستريني هاجمنا وقال إننا مجموعة من مثقفي الطبقة الوسطى وعلى ذلك توحدنا من السلطات اليمينية. وما أثار قلقي هو مدى صحة اتهام ستريني فلقد كان قد مر وقت طويل على دخولنا السجن وكان الخطر هو أن تكون أفكارنا قد تجمدت مع الوقت فالسجن نقطة ثابتة في عالم متحرك ومن السهل أن يبقى الإنسان في مكانه بينما العالم يتغير.

وفي عام ١٩٧٩ أعلنت السلطات تعديل نظام التغذية وتوحيده بين جميع السجناء من جميع الأعراق وعمدت السلطات في السجن إلى الإقلال من نصيب الرجل الملون من السكر بدلا من زيادة نصيب الإفريقي.

وفي الثمانينات منحنا حق شراء الصحف وكان ذلك الحق مقصوراً

على مصنفى «أ» وكانت كل مجموعة منهم لها الحق فى شراء صحيفة واحدة إنجليزية وأخرى أفريقية. ولكن إذا تبادلوها مع المجموعات الأخرى يسقط هذا الحق عنهم. ورغم أن الصحف التى كنا نشترىها كانت محافظة فقد كانت تخضع لرقابة السجن التى تتولى قص الفقرات التى تراها ضارة.

وأمكننى فى مارس ١٩٨٠ قراءة فقرة صحفية فى جريدة جوهانسبرج صانداى وكان العنوان «أطلقوا سراح مانديلا» أما فى داخل الصحيفة فقد كان هناك التماس يمكن للناس التوقيع عليه للمطالبة بإطلاق سراحى وزملائى.

وكانت الفكرة قد بدأها أوليفر والمؤتمر فى لوساكا وكانت الحملة حجر زاوية فى استراتيجية تضع قضيتنا فى بؤرة تفكير الناس وقام المؤتمر بتركيز الحملة على شخص واحد يريد أن يعطيها أبعادا شخصية. ومما لا شك فيه أن الملايين الذين أيدوا الحملة لم تكن لهم أدنى فكرة عن نيلسون مانديلا. وقد علمت أنه حينما ظهرت ملصقات Free Mendela فى لندن اعتقد معظم الشباب هناك أن اسمى الأول هو Free.

وكنت قبل ذلك بعام قد منحت جائزة جواهر لال نهرو لحقوق الإنسان فى الهند وكان ذلك دليلا على انبعاث المقاومة من جديد وبالطبع منعت أنا وروبنى من حضور الاحتفال وحضر أوليفر نيابة عنى. وتجدد أيضا نشاط الـ MK حيث كانت تقوم بإحداث تفجيرات أسبوعيا فى مواقع

استراتيجية. واستحدث وزير الدفاع مالان سيؤيده بوتـا- نظام «عسكرة» البلد لمواجهة معركة التحرير.

-٨٦-

وفى أحد أيام ١٩٨٠ علمت أن ملك ترانسكى ساباتا داليند يبيو الذى كان من المقرر أن أكون مستشارا له قد خلعه ابن أخى ماتانزىما رئيس وزراء ترانسكى. قد سبب ذلك استيائى الشديد. وطلب عدد من رؤساء قبائل الثمبو المحليين زيارتى وتمت الموافقة عليها من قبل السلطات لاعتقادهم أن انشغالى بالشئون القبلية قد يقلل من تورطى فى المعركة. وقد كانت الحكومة تدعم سلطة رجال القبائل للتقليل من أثر المؤتمر. وبينما رأى الكثير من زملائى أن أرفض رؤية هؤلاء الرؤساء رأيت من الواجب أن أحاول الوصول إليهم فلم أكن أرى تعارضا بين كون الإنسان قائدا قبليا وعضوا فى المؤتمر بل كنت أعتقد أن إسهامنا فى التنظيمات المحلية سيكون مصدر قوة لنا.

والتقيت بالرؤساء الذين كانوا يؤيدون ساباتا ويخافون ماتانزىما وأشرت عليهم بالوقوف إلى جانب ساباتا وأن يبلغوه تأييدى ومعارضتى لماتانزىما.

كما طلب ماتانزىما مقابلتى بحجة مناقشة أمور عائلية ورغم رغبتى فى رؤيته لاعتقادى بإمكانية التأثير عليه فقد اعترض كثير من رفاقى فى القسم لأنهم رأوا أن ماتانزىما سيستغلها للدعاية السياسية وإيهام الناس أننا راضون عن سياسته وانحنيت أمام آرائهم.

وفى مارس ١٩٨٢ علمت بإصابة وبنى فى حادث سيارة وبعد ذلك جاعى محاميتها ليطمئننى عليها وكانت الزيارة قصيرة. وعند عودتى إلى زنزانتى زارنى هناك مأمور القسم وكان ذلك أمرا غير معتاد. وأخبرنى المأمور أن على أن أجمع حاجياتى لأن الأوامر قد صدرت بنقلى ولم يفصح لى عن الجهة التى سأنقل إليها. وعلمت أن وولتر ريموند مهلابا وأندرو مالا نجينى قد صدرت إليهم نفس الأوامر.

وتساقلت: لقد مر على ثمانية عشر عاما فى الجزيرة. فلماذا هذا القرار المفاجئ؟ وحدثت حالة اهتياج فى المعمر عندما علم الآخرون أننا سنرحل ولكن لم نمنح الوقت لوداع رفاق السنوات الطويلة.

ونظرت من العبارة تجاه الجزيرة فقد اعتدت عليها. لقد عشت هناك قرابة عقدين من الزمان ورغم أنها لم تكن أبدا لى موطننا فلقد كانت مكانا شعرت فيه بالراحة فإبنى لا أشعر بالراحة مع التغيير ولم تكن الجزيرة استثناء لذلك.

وفى كيب تاون دفع بنا إلى شاحنة بدون نوافذ مضت بنا لمدة بدت أكثر كثيرا من ساعة. ثم وقفت وأمرنا بالسير فى الظلام وتسلقنا درجات إسمنتية ودخلنا من أبواب معدنية إلى منطقة أخرى. وحينما سألت الحارس عن المكان الجديد أجاب أنه سجن بولسمور. ■